أمل خلب

كانت عاطفة الحب فى « بيتهوفن » جياشة ، يفيضها على كل مخلص . وكان مشغوفاً بالجمال ، عظيم التعلق به ، والانجذاب إليه ، حتى قال فيه صديقه فيجلر : إن قلبه لم يخل فى «فينا» — وعلى الأقل طوال إقامتى بها — من الحب . وكثيراً ما جمحت به تلك العاطفة فبلغ فى حبه حد الوله والهيام »

وكان « بيتهوفن » برغم كثرة من أحبهن ، وأحبنه — وكلهن من الطبقة الراقية — العاشق البائس والمحب المنكود ، فلم يوفق فى حبه طوال حياته ، ولم يجد منهن من رضيت به بعلا ، تحتمل معه أعباء الحياة فى إخلاص وتواد .

ويتجلى عشقه للجمال فى تلك الرسالة التى بعث بها إلى صديقه « إيجناز فون جلايشنشتاين Ignaz Von Gleichenstein » فى مدينة « فرايبورج » يبحث عن زوجة صالحة قال :

« وهل عندك فى « فرايبووج » امرأة جميلة يمكن أن تنسجم وطبعى . . . ولا بد من أن تكون جميلة لأنى لا أستطيع أن أحب شيئاً غير جميل ، وإلا كان الأولى أن أحب نفسى » .

ومن آثاره التى يحتفظ بها التاريخ ، رسالة غرامية مسهبة كتبها إلى « الحبيبة الخالدة » ، وهى رسالة مطولة ، كان ختامها ما ترجمته :

« يا حياتى — يا كل شىء لى — وداعاً — ولتقيمى على حبى . لا تنكرى قلب حبيبك الذى هو أكثر القلوب إخلاصاً . أنا لك إلى الأبد ، وأنت لى إلى الأبد ، وكلانا لأخيه أبدا »

وهذه الرسالة وإن لم يذكر بها اسم المحبوبة ولا تاريخ تحبيرها فإن الرأى يكاد يجمع على أن الحبيبة المعنية كانت الكونتس « تريزا برونسفيك Therese Brunswik » شقيقة صديقة النبيل « فرانس برونسفيك » ، والمرجح أن يكون ذلك بين عامى ١٧٩٥ و ١٨٠٠ .

وكان « بيتهوفن » يكبر حبيبته هذه بخمسة أعوام . ولئن بادلته حبه لقد رفضت الاقتران به . وقال بعض المؤرخين ، بل إن هذه الرسالة موجهة إلى «جولييت جويكياردى» التى أحبها فى ذلك الحين ، والتى نجمل قصتها فيما يلى :

منذ عام ١٧٩٩ ، وبيتهوفن يقوم بإعطاء دروس البيانو لغادة حسناء ، فى نضارة العمر وريعان الصبا ، وهى النبيلة « جولييت جويكياردى» . كانت هيفاء القد ، معتدلة القوام ، مكتملة النضوج ، ذات شعر كستنائى جعد ، وعينين زرقاوين جميلتين ، يشف كل شىء فيهما عن أرستقراطية تليدة ، ومجد قديم . خفيفة الروح ، وديعة الخلق ، عذبة الحديث ، رقيقة الحاشية .

كان طبيعياً أن ينجذب « بيتهوفن » إلى ذلك الجمال الرائع ، وأن يستولى عليه هذا الحسن النادر فيغزو قلبه ، ويملأ حبها جوانحه بعد أن فشل فى حبه السابق .

حب « بيتهوفن » تلميذته الحسناء ، و بادلته هى هذا الحب أيضا . وامتدت معرفتهما ثلاثة أعوام كاملة .

نبتت عند « بيتهوفن » فكرة الزواج من حبيبته (جولييت) ، ولكن هل يقوى على مفاتحة أهلها فى هذا الأمر ، وهو الفنان المعدم لدى أذل نفسه مرض الصمم ، ذلك المرض الذى يتزايد خطره يوماً بعد يوم ، وهى المثرية النبيلة ، والزهرة اليانعة ، التى تتطلع اليها عيون أشراف ونبلاء « فينا » ؟

لم يقو « بيتهوفن » على خطبتها ، ولم يجرؤ على مفاتحة أهلها فى تلك الرغبة التى كان يؤجلها فى نفسه من حين إلى حين

عدت «جولييت» ذلك منه تواكلا و إغفالا لأمرها ، ولم يكن لها بد من أن تخضع الى رغبة والديها الملحة فى الاقتران بالنبيل «جالنبرج»

اعتبر « بيتهوفن » ذلك خيانة من « جولييت » ونكثاً لعهدهما ، وغدراً منها لإخلاصهما . فتولاه اليأس وشمله الكمد والحزن واعتزم أن يرحل من « فينا » فقصد إلى النبيلة « إرديدى التى لم يكتمها سره ، فعرفت كيف تؤاسيه ، وتخفف آلامه ، وتسرى عنه فى هذه الكارثة القلبية كانت تلك السيدة تقيم فى ضيعتها فى الريف قريبا من « فينا » فمكث عندها بضعة أيام . ثم توارى فجأة دون أن يودعها أو يستأذنها . وإذ كانت هذه النبيلة تعرف من « بيتهوفن » شذوذ طبعه ، ونبو تصرفاته ، فإنها لم تجد فى فعلته هذه شيئا غريباً . وأيقنت أنه عاد إلى مدينة « فينا » . ولكن سرعان ما تبين أن هذا الزعم كان خاطئا ،

فقد استحق الموسيقار فى ناحية نائية من حديقة القصر وانزوى فيه صائما إلى أن يموت جوعا . وكادت هذه الفكرة تم فتكون نهاية قاسية لمصير ذلك الموسيقار الخالد ، لولا أن كشف عن مخبئه مصادفة معلم الموسيقى فى بيت القبيلة ، بعد مضى ثلاثة أيام من استخفاء « بيتهوفن »

حمل « بيتهوفن » إلى القصر أقرب إلى الموت منه إلى الحياة . وظل حب « جولييت » فى قلبه حيا . لم يستطع منه فكاكا . ولقد أودع أحاسيس قلبه مقطوعته الخالدة « السوناتا دو دييز ميتير » التى ضمنها قصة حبه لمحبوبته « جولييت » . هى قطعة رائعة فى تعبيرها تنطق عن قوة اليأس فى الحب وانطفاء سراجه وخيبة الأمل فيه ، والوداع الذى لا لقاء بعده . تعبير موسيقى فصيح لا يمكن أن يكون أبلغ منه وإذا بالموسيقى تنتقل فى نغمات كاشفة عن بسمة الزمان فى لحظات قليلة من السعادة تلمع فى ظلمة المستقبل البهيم ، يعقبها ألم الحنين وثورة الحنق وضربات القدر المؤلمة . كل هذه المعانى وغيرها من مختلف الأحاسيس التى كانت تجيش وقتئذ فى صدره والتى لا تقوى الكلمات على التعبير عنها صورها « بيتهوفن » أدق تصوير فى تلك المقطوعة الخالدة التى سميت فيما بعد « سوناتا ضوء القمر »

ويميل بعض المؤرخين إلى أن هذه السوناتا وإن ترجمت إلى حد كبير عن قصة « بيتهوفن » وحبيبته فإنها لا صلة لها بتلك القصة

حضر « كارل » شقيق « بيتهوفن » إلى فيينا والتحق بإحدى وظائف البنك الأهلى

وشاء « كارل » أن يحمل عن أخيه — وقد أصبح ذائع الشهرة بعيد الصيت — عبء المراسلات والاتفاقات المادية ، إلا أنه بالغ فى الأمر حتى أصبح يعتقد أنه شريك شقيقه وولى أمره . فضلا عن أنه أضفى على ذلك العمل ثوبا تجاريا بحتا أسماه باسم أخيه

ولعل الرسالة التالية تصور بعض ما كان يقوم به « كارل » فى هذا الصدد ، فقد كتب إلى أحد التاجرين يقول :

— لقد تفضلتم بإرسال خطاب الينا (!) تعربون فيه عن الرغبة فى شراء حقوق بعض مؤلفات شقيقى وإنا لنشكر لكم خالص الشكر ونخبركم أن ليس لدينا الآن غير قطعة « سنفونى » واحدة ، وقطعة من « الكونسرت » الكبير للبيانو . والأولى ثمنها ثلثمائة جولدن (حوالى ٢٥ جنيها) والثانية ثمنها كذلك أيضا فان رغبتم فى الحصول على قطع من نوع « السوناتا » فإنى (!) لا أستطيع أن أعطيها لكم بأقل من تسعمائة جولدن (حوالى ٧٥ جنيها) . وهذه لا تستطيعون الحصول عليها دفعة واحدة بل سأرسلها لكم تباعا ، قطعة كل خمسة أو ستة أسابيع لأن شقيقى أصبح لا يشغل نفسه بمثل هذه الطلبات التافهة . . . وعلى كل حال أرجو موافاتى برأيك لأنى فى صدد بيع هذه المقطوعات لناشر آخر . ولدينا قطعتان أخريان من نوع « الأداجيو » لآلة الكمان بمصاحبة جميع آلات الفرقة ، وثمنها ١٣٥ جولدن (حوالى ١١ جنيها) . ثم قطعتان صغيرتان « سهلتان » من نوع « السوناتا » وثمنهما ٢٨٠ جولدن (حوالى ٢٤ جنيها) ونحن فى خدمتكم . . . »

وهكذا كان تصرف « كارل » فى عرض النتاج الفنى لأخيه عرضا تجاريا بحتا أساء الى سمعته وصوره لدى الناشرين البعيدين عنه صورة خاطئة بعيدة عن الحقيقة .

ثم غالى « كارل » فى هذه الناحية فتصور نفسه صاحب الأمر والنهى فى بيع نتاج أخيه ، حتى لقد حدث أن اتفق « بيتهوفن » فعلا مع أحد الناشرين فى « زيورخ » على أن يرسل له بضعة قطع من نوع « السوناتا » ، ولكن « كارل » تشبث بعدم إرسالها إليه و بيعها إلى ناشر آخر فى مدينة « ليبزج »

و بلغ اختلاف الشقيقين الى درجة المشاجرة . حتى لقد تطاول « كارل » على شقيقه فأمسك بخناقه وتدافعا وتضاربا وكانت نتيجة هذا العراك العنيف أن تولى « بيتهوفن » ثانية تصريف جميع أمره .

فى أوائل عام ١٨٠٢ ثقل المرض على « بيتهوفن » فلما تماثل ، أشار عليه طبيبه الأستاذ « شميت » بالنزوح إلى ريف « المدينة المقدسة » وهى إحدى ضواحى « فينا » ليستجم فيها استجماما تاما يعيد إليه الصحة والعافية ، وقد يكون للهدوء الذى يشمل تلك الجهات أثر حسن فى حاسة سمعه .

أقام « بيتهوفن » هناك فى بيت قروى ، كان يطل على الحقول الفسيحة ، ونهر « الدونا » الجميل ، كما كانت بالقرب منه حمامات معدنية ، على مسيرة بضع دقائق من مسكنه

أقام فى هذا المكان الجميل الهادىء حتى الخريف ، ولئن عاش « بيتهوفن » هذه الفترة من الزمن فى راحة شاملة لقد كانت تمر به فى

وحدته لحظات مظلمة كانت تسوقه إلى اليأس أحيانا . وفى إحدى تلك اللحظات ، وقد تصور قرب نهايته ، كتب وصيته وهى تجلى عما كان ينطوى عليه قلبه الكليم من لواعج وآلام ، وتكشف عن مكنون لامه المكبوتة . وهذه الوصية موجهة إلى شقيقه ، وقد بدأها بقوله :

« أيتها المخلوقات البشرية ! إنك تظلمينى فيما تعتقدينه فىّ من عدوان ، وجمود ، ونظرة مظلمة للعالم ، ذلك بأنك تجهلين الأسباب الخفية التى صورتنى لك فى هذا المظهر . إن قلبى وروحى قد درجا منذ الطفولة على رقيق المشاعر ، وحب الخير ، والاستعداد للأعمال الكبيرة ولكن ماذا لقيت ؟ جابهتنى منذ ستة أعوام حالة سيئة ! أطباء كانت جهالتهم سببا فى مضاعفة المرض عاماً بعد عام ، وفى غشهم لى ما جعل المصيبة رازحة لا تريم . وللناس أن يتصوروا حالى - أنا الرجل المملوء نشاطا بطبعه ، المحب للمجتمعات والمجالس بفطرته - - وقد حيل بينى وبينها وانتزعت منها إلى العزلة ، فى سن مبكرة أنيس الوحدة وجليس الوحشة

« لقد حاولت أحيانا أن أثور على هذه الحال ، وأن أخرج للناس وأتصل بالمجتمعات . ويلى ! لقد كنت أعود وقد فدحت فى قلبى مضاضة الألم ، وتزايدت فيه حرارة الحسرة ، ما أقسى فقد حاسة السمع . إنى لا أقوى على أن أطلب إلى محدثى أن يرفع صوته لأنى أصم . كيف أعترف للناس بفقد حاسة يجب أن تكون عندى أتم وأكمل منها عند بقية الناس ، حاسة كانت عندى فى صورة كامله يغبطنى عليها جميع زملائى وأقرانى . ويلى ! ما أعجزنى عن تحمل هذه الحال

فاغفروا لى أيها الناس عزلتى . وعفواً عن إرغامى على الابتعاد عنكم وكل مناى أن أكون بينكم . يضاعف آلامى حرمانى من الترويح عن نفسى بالاشتراك فى مجالس السمر التى ينشرح لها صدرى . لقد كتب علىّ أن أعيش كالمنفى . فاذا غشيت مجلساً انتابنى فزع عظيم من أن يدرك أهله حالى وأن يقفوا على مصيبتى . لقد فكرت كثيراً فى أن أضع نهاية لحياتى ، ولكن مخافة الله وحبى لفنى هما اللذان كانا يبعدان عنى هذا الخاطر . إننى لا أريد الموت ولا أرغب فى ترك هذا العالم قبل أن أبلغ رسالتى التى أعتقد أننى بعثت من أجلها ، وأن أحقق لفنى آمالا كبارا تجيش فى صدرى . هذه النجوى وحدها هى التى ساعدتنى على أن أتحمل ذل هذه الحياة التعسة . الصبر ، كلمة أضعها دائماً نصب عينى . هى قائدى ، وقبلتى . لشدما كان ترددى بين الأمل واليأس ، ولكنى أشعر الآن أن حبل الحياة قد انقطع »

ثم جاء فى هذه الوصية أن يرثه شقيقاه فيما ترك من متاع . ثم هو بعد ذلك يشكر لأصدقائه و بخاصة أسرة «اشنوفسكى» والأستاذ «شميت» .

ويلى ذلك حاشية ضمها إلى الوصية بعـد بضع أيام يودع فيها « المدينة المقدسة » التى يقيم بها ، ويشكو من أن مقامه فيها لم يحقق أمله فى شفائه من مرضه ، بل لقد انقطع جميع رجائه فى الشفاء .

وقد ختم تلك الوصية بقوله :

« إيه ، أيتها السعادة ! كنت أتمناك ولو يوماً واحداً ، ولـكنك أصبحت غريبة عنى ، بعيدة عن حنايات قلبى . رباه ! هل لى أن

أحس أنى آدمى ، وأنى إنسان ؟ كلا ، ذلك ما لن يكون . إنه قضاء قاس »

ولم يدر « بيتهوفن » يوم كتب هذه الوصية التى توهم فيها اقترا أجله أن العمر سيمتد به بعد كتابتها نيفاً وربع قرن .

وعجيب أن يكون النتاج الذى ابتـــدعه « بيتهوفن » فى تلك الأشهر النكدة التى سطر فيها اليأس والحزن وصيته نتاجاً صافياً لا يلمح المرء فيه أثراً للانقباض واليأس ، بل لعل هذا النتاج فى مجموعه أكثر نتاج هذا الموسيقار الخالد بهجة وسروراً ، وانشراحاً ومرحاً ، بل لقد أبدع « بيتهوفن » فى صيف ذلك العام قطعة من أخلد مقطوعاته ، هى « السنفونى الثانية »

ورغم اضطراب أفكاره تلك الفترة من الزمن ، وتبلبل باله إذ ذاك فقد وهب العالم من رائع نتاجه ، وسمو فنه ما لا يزال فى قلب كل محب للموسيقى ، مغرم بالفن .

كانت عبقرية « بيتهوفن » لا تتقيد فى تآليفها بقواعد مرسومة ، أو تراكيب تقليدية موروثة ، إنما كانت حرة فى تآليفها ، طليقة فى ابتكاراتها تتخطى كل هذه القيود والتقاليد الفنية ما دامت تجد فى هذا التخطى تحريراً لهذا النتاج من أسر هذه الأغلال

كان ذلك فوق طاقة معاصريه . فلم يدركوا غايته ورموه بالخروج على التراكيب والقواعد المتواضع عليها ، وعدوا نتاجه خليطاً مفككا . ومن أجل ذلك كان النقد الذى يوجه لنتاج « بيتهوفن » من معاصريه الفنانين والنقاد مراً قاسياً ، حتى لقــد وصفوا نتاجه الآلى للفرق

الكبيرة ، ومن بينها «السنفونى الأولى» بأنه نتاج مضطرب ، ومفكك. لشاب مغرور » .

وكان النقد الذى وجه إلى السنفونى الثانية لا يقل عن هذا النقد المتقدم قسوة ومرارة .

لم يعبأ « بيتهوفن » بمثل هذا النقد الذى كان يوجه إليه ولا الحملات التى كانت تشن على نتاجه ، بل ولم يعبأ بالدفاع عن نفسه ، ذلك بأنه كان يعتقد فى معاصريه من الملحنين والعازفين القصور عن تقدير نتاجه ، وأنهم أقزام لا يتطاولون اليه فى هذا الميدان .

ومن شذوذ طباع « بيتهوفن » ، وصلابة رأيه ، أنه لما حضر « كليمنتى » العازف الماهر بالبيانو ، والملحن القدير إلى « فينا » عام ١٨٠٢ حيث أحيى فيها ، هو وتلميذه « كلنجل » بعض الحفلات ، اعتزم « بيتهوفن » زيارته . غير أنه ترامى إليه أن « كليمنتى » يرى ضرورة أن يبدأ « بيتهوفن » الزيارة أولا لأنه ضيف تقضى التقاليد بتقديم زيارته ، فعدل «بيتهوفن» عن هذه الزيارة . وعجيب أن تشاء الصدفة أن يجلس للغداء على مائدة واحدة « بيتهوفن » مع تلميذه «ريس» و « كليمنتى » مع تلميذه «كلنجل » ، و برغم أن كلا منهم عرف شخصية الآخرين فإنهم لم يتبادلوا التحية إطلاقاً .

ومن مفاخر «بيتهوفن» وقتئذ ماحدث له مع الموسيقار «شتايبل» الذى كان من أمهر العازفين بآلة « البيانو » حتى ذاع صيته فى « باريس » واشتهر بهذه المهارة شهرة عظيمة . حضر إلى « فينا »

فتقابل مع « بيتهوفن » عند النبيل « فريز » . وعزفت إحدى ثلاثيات « بيتهوفن » فاشترك « شتايبل » فى عزفها ، ولكن « بيتهوفن » لاحظ أن هذا الموسيقار يعامله بكبرياء ، وأن عبارات الثناء التى وجهها إليه كانت فاترة . سكت « بيتهوفن » على مضض ثم عزفت إحدى خماسيات « شتايبل » ، وفى نهايتها أخذ المؤلف يرتجل على البيانو ألحانا رائعة أعجب بها الحاضرون أيما إعجاب . انتهت الحفلة ، وانصرف الحاضرون

و بعد ثمانية أيام من ذلك اجتمع الفنانان مرة أخرى فى بيت ذلك الشريف ، فبدأ « شتايبل » فى هذه المرة بخماسية حازت نجاحا باهرا ثم انتقل منها إلى ارتجال على البيانو كان رائعا بديعا ، تناول فيه الفكرة الموسيقية التى سمعها منذ ثمانية أيام من ثلاثية « بيتهوفن » . كان عزفا متقنا ، وأداء بديعا ، إنما كان جليا أن ذلك لم يكن مرتجلا لساعته بل كان معداً سبق التدريب عليه من قبل

عندئذ تقدم « بيتهوفن » إلى البيانو وأخذ يرتجل عليه ارتجالا رائعا بناه على الفكرة الموسيقية التى سمعها توا من خماسية « شتايبل » فى هذه الحفلة ، وأخذ يبنى على هذه الفكرة ألحانا معجزة ، وأنغاما ساحرة ، وكان كلما توغل فى عزفه وحلق فى سماء ابتكاراته المدهشة تضاءل « شتايبل » وصغر فنه فى نظره حتى انسحب من الحفل خزيان أسفا .

سِنفونى البطولة
وأوبرا "فيدليو"

كان «بيتهوفن» يدين فى مذهبه السياسى بنظام الحكم الجمهورى عاصر الثورة الفرنسية ، وكان وطنه أكثر البلاد تأثرا بتلك الثورة لمجاورته للبلاد الفرنسية

كان مبدأ الحرية والمساواة ، الذى قامت على أساسه الثورة الفرنسية ، عميق الأثر فى نفس الفتى «بيتهوفن» ، فتعشقه ، وتمنى لو عم جميع الأقطار . وكان « بيتهوفن » يكبر مبادىء أفلاطون التى أودعها « جمهوريته » ، ويرى فيها المثل الأعلى لجميع حكومات العالم ، ولذلك تمكنت منه وسرت فى لحمه ودمه .

ولهذا أيضاً كان « بيتهوفن » شديد الإعجاب بالقنصل « نابليون بونابارت » .

وكان يرى فيه البطل الذى يحقق له المثل الأعلى الذى يدين به فى قواعد جمهورية أفلاطون ، وفيه بداية سعادة العالم .

اعتزم «بيتهوفن» أن يخلد هذا البطل الذى يكنّ له فى قلبه أكبر نصيب من الإعجاب فى إحدى مقطوعاته الموسيقية الكبيرة .

بدأ تأليف تلك المقطوعة فى خريف عام ١٨٠٢ ولكن قامت

obeikandi.com

العوائق فى سبيله فلم يتمكن من إتمامهـا إلا بعد عامين وكانت هى « السنفونى الثالثة » .

كتب « بيتهوفن » بخطه على أولى صفحاتها كلمة « بونابرت » . وتلك السنفونى يمثل جزؤها الأول البطل بين الحياة والموت . ويعبر الجزء الثانى منهـا عن الاحتفال بالجثة فى مارش حداد بلغت الموسيقى فيه مبلغا لايلحق له غبار . ويمثل الجزء الثالث تجمع آلات الحرب وسكونها على قبره . أما الجزء الرابع وهو الأخير فتعبير عن مواراة الجثة ومأساة البطولة .

وكان المنتظر أن ترسل هذه السنفونى إلى بطلها بباريس عن طريق الوزير المفوض لفرنسا فى « فينا » ولـكن حدث ما أوقف هذه الخطة وحولها عن تلك الطريق .

دخل « ريس » على أستاذه « بيتهوفن » ينبئه أن « نابليون بونابارت » نودى به قيصراً على فرنسا . فجأ هذا الخبر « بيتهوفن » فاستبعد تصديقه حتى أطلعه تلميذه عليه فى الصحف .

قرأ « بيتهوفن » تفاصيل الأمر وعـلم أن مجلس الشيوخ قرر فى جلسته المنعقدة فى ١٨ من مايو سنة ١٨٠٤ تنصيب بطل الجمهورية قيصرا على «فرنسا» ومنحه لقب « نابليون الأول » وأن يكون الحـكم وراثة له ولذريته من بعده .

جمد الدم فى عروق «بيتهوفن» واستشاط غيظا حتى أمسك بكراسة القطعة الموسيقية فمزق غلافها ثم رمى بها إلى الأرض وداسها بقدميه وهو يقول:

« ليس بونابارت إذن خيرا من الآخرين ، فهو أحد البشر ، يدوس برجله غدا حقوق شعبه بعد أن تعلمه القيصرية كيف يكون ظالما وقد كان بالأمس نصير حريته »

وأراد « ريس » أن يرفع الكراسة عن الأرض ، فنهاه أستاذه قائلا : « دعها تداس فقد داس آمالى » .

ولما قضى « بونابارت » نحبه بمنفاه فى « سنت هيلانة » قال بيتهوفن:

« لقد تنبأت له قبل سبعة عشر عاما بهذا المصير ، فعبرت عنه فى موسيقاى تعبيرا كاملا » (يشير فى ذلك إلى مارش الحداد فى تلك السنفونى) .

هذه قصة السنفونى الثالثة التى أطلق عليها فيما بعد اسم (سنفونى البطولة Eroica) وهو الاسم الذى لاتزال تعرف به إلى اليوم .

كان أول ماعزفت فى قصر الأمير « لوبكوفتش » فلم تصادف نجاحاً ، ولم يدرك الناس غايتها ، حتى حضر إلى فينا البرنس « لويس فردناند» وكان رجلا عبقريا وملحنا كبيرا ، وعازفا ماهراً بالبيانو سبق أن تعرف إلى « بيتهوفن » أثناء زيارته لبرلين فأعجب بنبوغه الفياض وعبقريته السامقة .

زار هذا البرنس الأمير « لوبكوفتش » فى قصره فسمع أحدث مؤلفات« بيتهوفن » وهى سنفونى البطولة فبلغ من إعجابه بها أن طلب استعادتها حالا فأجيب الى طلبه . وما استراح الموسيقيون ساعة حتى استعادها البرنس فى حرارة . ومن هذا الحين بدأ نجم تلك السنفونى يتألق فى سماء الخلود ، و بدأ الناس يدركون مافى موسيقاها من عظمة وروعة

وفى اليوم التالى تلقى « بيتهوفن » من الأمير لوبكوفتش هدية نفيسة ، سلسلة ذهبية من صياغة البندقية .

وأقامت إحدى النبيلات حفلة مسائية تكريما للبرنس « لويس فردناند » ، دعى اليها « بيتهوفن » فلما حان وقت الطعام لاحظ بيتهوفن أن مكانا خاصا أعد للشخصيات الممتازة من الأشراف والنبلاء ، ولم يكن بتهوفن من بينهم فعز ذلك عليه وعده إهانة بالغة ، فغادر المجلس غاضباً ، تتطاير من فيه ألفاظ الحنق ، واندفع ضاربا الباب خلفه . هنالك قسا المدعون عليه بعد خروجه فى توجيه أقذع ألفاظ اللوم إليه . ورموه بجهله آداب الاجتماع . أجمع كلهم على ذلك إلا البرنس « فردناند » فانه قال :

« لو كنت أنا « بيتهوفن » لما فعلت غير ذلك » .

وسواء أكان هذا خطأ أم صواباً ، فقد كان هذا مبدأ « بيتهوفن » الذى يدين به ، والذى اضطر الأمراء والأشراف للخضوع له ، وأن يتخذوا ابيتهوفن من عظمته لقباً مساوياً لألقابهم الوراثية ، فقد أولم البرنس نفسه بعد بضعة أيام من هذه الحادثة وليمة غداء دعى إليها السواد الأعظم من مدعوى الحفلة السابقة من الأشراف والنبلاء ، وكذلك النبيلة صاحبة تلك الدعوة ، ودعى إليها « بيتهوفن » أيضاً . جلست النبيلة صاحبة الدعوة الأولى و إلى يمينها البرنس صاحب هذه اليمة ، و إلى جانبها الآخر جلس « بيتهوفن » لا يعلوه فى المجلس أمير ولا وزير . ولم لا يكون ذلك ، والأمراء و إن أنعمت عليهم

القياصرة والملوك بأعلى الرتب ، وأسمى النياشين ، فقد أنعم الله على « بيتهوفن » بأعلى المواهب وأسمى العبقريات البشرية .

وشاء القدر أن يحرم البرنس « فردناند » من سماع سنفونى البطولة مرة أخرى فقد مات بعد ذلك بعامين ميتة شريفة فى ساحة القتال بإحدى المواقع الحربية .

كان من عادة « بيتهوفن » أن ينتج أكثر من قطعة فى وقت واحد ، وأن يبدأ العمل فى قطعتين أو أكثر معاً حتى أطلق على بعض مقطوعاته (التوائم) إشارة إلى تخريجها فى وقت واحد .

وقد شغل « بيتهوفن » نفسه فى أثناء تأليفه سنفونى البطولة بتأليف آخر لا يقل عن هذه السنفونى عظمة وخلوداً .

أعيد بناء أحد مسارح « فينا » وتقرر افتتاحه فى نهاية عام ١٨٠٤ واقترح مديره على « بيتهوفن » أن يلحن له إحدى الأوبرات لهذا الغرض

رحب « بيتهوفن » بهذا الاقتراح ، ووجده فرصة سانحه للسكر فى ميدان بلغ فيه « موتسارت » أوج العز والفخار . وهل هناك ميدان أوسع للشهرة من الموسيقى المسرحية ، يجتمع فيها إلى جانب الفن الموسيقى روعة الإخراج ، وتأثير المسرح ؟

وفق « بيتهوفن » لإيجاد الرواية ، وكان مؤلفها « بوللى » الفرنسى وقد سبق تلحينها من قبل . وترجمت نظما إلى الألمانية .

أعد البـــارون « فون براون » مدير المسرح الجديد مسكناً به

لبيتهوفن خاصة ومنحه إياه بالمجان مدى عام ، ولـكن « بيتهوفن » لم يرق فى عينيه هذا المسكن فاستأجر له مسكناً آخر فى « البيت الأحمر » وكان يسكن فيه صديق له من مدينة « بون » هو « ستيفان فون برو بلنج » الذى استدعى إلى « فينا » مستشاراً للقيصر .

ولما كان الوقت صيفاً فقد استأجر « بيتهوفن » مسكناً ريفياً فى « ديبلنج » إحدى الضواحى الجميلة لمدينة فينا . غير أن « بيتهوفن » وكانت أعماله تضطره للتردد كثيراً على المدينة وكان يخشى عدم تفرغه لعمله فى مسكنه بالبيت الأحمر لوجود صديقه به ، فقد استأجر مسكناً آخر بالطابق الرابع فى منزل البارون « باسكوالاتى » فى « فينا » . وكان كثير التنقل من هذا البيت والعودة اليه ، حتى قال البارون لوكيله : اترك هذا المسكن خالياً فسيعود اليه « بيتهوفن » .

وهكذا كان « بيتهوفن » يسكن فى أربعة مساكن فى وقت واحد .

انكب « بيتهوفن » على عمله فى أوبراه الجديدة ، وعكف على إنجازها حتى انقطع عن الناس فى الربيع والصيف من عام ١٨٠٥ ، واعتزل الناس وتجنب الحياة العامة فى تلك الفترة إطلاقاً . وفى نهايتها كان قد أتم تلحين الأوبرا « فيديليو » أو « الحب فى الزوجية »

وفى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٠٥ ظهرت أوبرا « فيديليو » على المسرح لأول مرة . وكان حظ « بيتهوفن » فى هذا العرض عاثراً إذ كان اختيار الوقت الذى تحدد لظهورها غير مناسب ، فقد دخل الفرنسيون « فينا » قبل هذا التاريخ بأسبوع واحد ، وغادر المدينة رجال البلاط

وكبار الموظفين ، وطائفة الأشراف والنبلاء ، وصارت الجنود الفرنسية تجوس خلال المدينة ، وتجوب طرقاتها ، وتتنقل فى الأحياء الأرستقراطية المقفرة من أهلها .

أما أهل « فينا » فقد شغلهم هذا الظرف العصيب عن التفكير فى الموسيقى والاتجاه إلى المسرح . لهذا فقد كان المسرح خلواً من المشاهدين التمساويين حافلا بعض الشيء بالجند الفرنسى . أما المقاصير ، والأماكن المعدة للأشراف والنبلاء عادة فقد احتلها الضباط الفرنسيون . و إذن فقد اخفقت أوبرا فيديليو .

لقد بلغ « بيتهوفن » فى تأليفه الآلى قمة المجد ، وغاية العظمة ، أما تأليفه الغنائى فكان قليلا نادراً ، ولذلك فانه لم يراع فى تلحين هذه الأوبرا أن تكون المناطق الصوتية لأغانيها مناسبة لحناجر القائمين بأدوارها من المغنين والمغنيات ، وهو ما كان يحرص عليه ملحنو ذلك العصر ، إنما صاغ بيتهوفن هذه الأغانى كما يجب أن تكون . فتطلب أداؤها من المغنين والمغنيات مجهوداً شاقاً وصعوبة بالغة ، و برغم ذلك فقد أجادت بطلة الرواية التى قامت فيها بغناء دور « ليونورا » إجادة فائقة . كانت تلك المغنية « أنا ميلدر Anna Milder » فتاة لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها ، لم يخصها الله بجمال رائع فحسب ، بل حباها كذلك صوتا ملائكيا ساحراً ، استولى على « بيتهوفن » نفسه وأحبها حتى لقد ذهب بعض المؤرخين إلى أنها هى المعنية بالرسالة السابقة الذكر التى بدأها بقوله : « إلى الحبيبة الخالدة » ولكن هذا الزعم ضعيف .

مثلت تلك الأوبرا خمس مرات فقط ، فى غير نجاح ، كانت دار المسرح فى خلالها تكاد تكون خالية ثم أهملت بعد ذلك . وحتى فى هذه الكارثة الفنية لم يرحمه الناقدون ورهط الحاسدين والمعارضين ، فأمطروا الرواية نقداً مراً ، قاسياً . ولا تزال هذه النقدات محفوظة تشهد بما لاقاه ذلك الموسيقار الخالد من عسف الحسد وعنت الحقد .

وإذ كانت « الأوفرتير » (مقدمة الأوبرا) آلية بحته فقد كثر عزفها خارج المسرح ، ولكن الجمهور لم يستسغها بل رآها طويلة نابية فسقطت هى أيضاً .

وحاول الأمير « ليشنوفسكى » أن ينقذ « بيتهوفن » من سقطته هذه فعمل على ظهور هذه الأوبرا فى برلين ، وأرسل بها إلى الملكة « لويزا » زوج « فردريك ويلهلم الثالث » وكانت مشغوفة بالموسيقى ، محبة لكل نتاج عبقرى فيها . ولكن أستاذ البيانو فى قصرها ، صرفها بعد دراسته لهذه الأوبرا عن تمثيلها بدعوى أنها لا تستحق . ولم يكن هذا الأستاذ غير الموسيقار « هيمل » الذى ناصبه « بيتهوفن » العداء فى أثناء زيارته لبرلين فتحداه فيما ارتجله من العزف بالبيانو .

* * *

كان سقوط الأوبرا «فيديليو» ضربة قاسية أصيب بها «بيتهوفن» أوقعته فى حرج مادى شديد ، ذلك بأنه كان وقتئذ فى ضائقة مالية ، وضيق مستحكم ، وكان يرى مخرجه الوحيد من تلك الأزمة فيما يربحه من هذه الأوبرا فيكسب منها مايسد حاجته ، ويفرج كربته . ولكن التعاقد

بينه و بين مدير المسرح كان ينص على أن تكون مكافأة التلحين نصيباً معيناً من دخل «الأوبرا» . وكان ماخص «بيتهوفن» من دخل تلك الليالى الخمس لايزيد على سبعة عشر جنيها .

ولك أن تتصور مدى نكبة « بيتهوفن » فى تلك الأوبرا مما دفعته اليه الحاجة الملحّة والفاقة الممضة من تقديم طلب إلى مدير المسرح ليعينه فيه مؤلفاً للأوبرا والأوبريت فلم يؤد سوء تقديره لعدم توظيفه فحسب بل للضن بالرد عليه إطلاقا .

حزب الأمر الموسيقار فاضطرته الحاجة أن يسأل شقيقه الأصغر « يوهان » — وكان قد أصبح ذا ثروة كبيرة — قرضاً يستعين به فى أزمته .

ولم يكن هذا الألم المادى على فداحته إلا شيئاً يسيرا إلى جانب الألم النفسى الذى أصيب به «بيتهوفن» فى دخيلته لفشل عمل فنى كان يعتقد أنه من أعظم نتاجه . لقد خيل إليه أن المركز الوطيد الذى تدعم له فى عالم الموسيقى بدأ يتقلقل تحت قدميه . كانت فترة يأس مريرة كادت تقضى عليه فأخذ يناجى نفسه : « إلام تبقى تلك الموسيقى التى تصدر من أعماق نفسى وأودعها كل ما أملك من قوة وفن ، مغمورة غير مفهومة ؟ »

لم تدع عبقرية « بيتهوفن » الوثابة مجالا للأجابة على تلك المناجاة اليائسة ، بل ساقته إلى متابعة الإنتاج ، فأبدع «السنفونى الرابعة» ، التى فرغ منهـا سنة ١٨٠٦ وكان عزفها لأول مرة فى عام ١٨٠٧ حيث

عزفت مرتين فى ذلك العام دون أن تصادف ماتستحقه من التقدير .

وفى ربيع عام ١٨٠٦ اعتزم «بيتهوفن» بعد إلحاح أصدقائه أن يبعث أوبرا « فيديليو » من جديد ، فأكب على مراجعتها وتناول الكثير منها بالحذف والإضافة ، والتبديل والتغيير . وقام « ستيفان فون برونينج » بتحوير كبير فى النظم حتى جعلها فصلين بدلا من ثلاثة . وفى ٢٩ مارس سنة ١٨٠٦ ظهرت تلك الأوبرا باسم جديد هو « ليونورا » .

وغنت « أنّا ميلدر » دور البطلة هذه المرة أيضاً فأبدعت غاية الإبداع وحازت عظيم رضاء بيتهوفن ، وشديد إعجابه .

غيرأنه برغم ذلك كله لم يكتب لهذه الأوبرا الخالدة النجاح المرجو فأهملت مرة أخرى بعد أن مثلت مرتين فقط .

وكان قد غير « بيتهوفن » مقدمة (أوفرتير) هذه الأوبرا لثالث مرة ، فصارت عرضاً موسيقيا لجميع حوادث الرواية وتعبيراً صادقا عن كل مايجرى فيها من مختلف المواقف وماتحويه من شتى العواطف والمشاعر مما جعلها درة موسيقية نادرة . وهذه المقدمة تعزف فى الوقت الحاضر عادة بين الفصلين الأول والثانى .

كان فى سقوط « فيديليو » فى هذه المرة أيضاً بعد مابذل فيها من جهد ، صدمة قاسية وضربة عنيفة أصيب بها «بيتهوفن » وهو المعتد بفنه ، المعتز بقوته فيه . وفى الحق إن موسيقى هذا الفنان العبقرى الجبار كانت فوق طاقة معاصريه . ولم يقتصر الأمر فى ذلك على جمهرة

الشعب وعامته فحسب بل العجيب أن يكون هذا النتـــاج الفنى فوق مستوى أفهام الخاصة ، بل و يسمو أفهام أعلام الموسيقى فى عصره ، حتى المؤلفين منهم ، فإن الموسيقار « ساليبرى » وهو شيخ الموسيقى ورئيسها فى البلاط ، وكان العدو المنافس لموتسارت وأستاذ « بيتهوفن » فى صباه قد حضر تمثيل هذه الرواية فى إحدى الليالى ثم خرج يرافقه الموسيقار « كلاينهاينز » مدير الفرقة الموسيقية فتحدث إليه يقول :

— إن « بيتهوفن » ملحن غريب ، يتدرج على السلم فيصعد إلى الدور الأول ، ثم إلى الثانى ، فالثالث ، فالرابع ، حتى يبلغ قمة المنزل و إذا به يقفز فجاءة من نافذة فى القمة إلى الأرض ، أنا لا أستطيع أن أدرك ذلك .

فأجابه « كلاينهاينز » :

— أنا لا أفهم أيضاً ، إنما أستطيع أن أؤكد لك أننا إذا صعدنا فى تآليفنا إلى مثل ما يرتفع إليه « بيتهوفن » ثم رغبنا فى الهبوط على درجات السلم فى هدوء وهوادة فلن نصـل إلى الأرض إلا مهشمى الرؤوس .

بيتهوفن كإنسان وفنان

جاوز « بيتهوفن » منتصف العقد الرابع ، وكان مظهره قوياً ، ضخم الجسم ، فى غير بدانة ، ربع القامة ، أسمر البشرة ذا شعر أشعث ، يدور حول رأسه الكبير كأنه معرفة الأسد ، ذا أنف عريض أفطس ، تعلوه عينان سوداوان ، برز من فوقهما جبين عريض .

ولم يكن فى الزى متأنقاً يتوشح منه أجد طراز ، إنما كان يرتدى عادة سترة من نوع « الفراك » ذات لون ناصع الزرقة وأزرار مذهبة ، وأحياناً سترة من نوع « الريدنجوت » ذات لون بنى ، أو أخضر غامق ، أما سرواله (البنطلون) فكان رمادى اللون . ويلف حول رقبته رباطاً كبيراً على شكل عقدة أمامية .

أما قبعته فكانت قبعة عالية صلبة ، وأحياناً كان يتخذها من الجوخ ، عريضة الدائر ، أما فى الصيف فكانت قبعته من الخوص .

كانت حياة « بيتهوفن » فناء فى فنه وانقطاعاً له وانصرافاً إليه ، وكان فى مظهره جاداً عابس الوجه ، وإن كان قبل أن يصاب بالصمم ، كثير الدعابة ، حلو الفكاهة .

كانت قدرته على كتم إحساسه عجباً ، فكانت ملامح وجهه لا تنم إطلاقاً عن تأثيره النفسى إذا ما شاهد مسرحية أو حضر حفلة ، ومحال أن تقرأ فى أساريره ما يشعر به من الإعجاب أو التبرم ، لكنه كان ، اذا لم يعجبه شىء ، يتسلل من المكان فى صمت .

وكان « لبيتهوفن » ككل عبقرى عظيم ، أعداء ومعارضون ينفسون عليه نبوغه . وكان شذوذ طبعه ، ومفارقات تصرفاته ، تجعل العامة ترى فيه شخصية غريبة . وكان معارضوه وحاسدوه من زملائه الفنانين والناقدين يضعون العراقيل فى سبيله . لكن شخصية « بيتهوفن » كانت قوية جبارة تشق طريقها فى الفن والحياة دون أن تحفل بما يحاك حولها ، وكانت تصد كل ما يعترضها فى قوة ، وشدة لا تعرف الهوادة ولا اللين حتى ولو خرج فى ذلك عن حدود اللياقة والأدب .

حدث مرة أن دعى لحفل فى قصر أحد الأمراء . وإذا بأحد النبلاء من المدعوين يسأله فى كبرياء عما إذا كان يفهم أيضاً فى آلة الكمان !!! لم يجبه « بيتهوفن » على سؤاله ، وتسلل من الحفل ، وعبثا حاولوا الاهتداء اليه . وفى اليوم التالى تلقى الأمير صاحب الدعوة من « بيتهوفن » الرسالة التالية :

« أيها الأمير ، إنكم لمدينون بمركزكم للصدفة والوراثة ، أما أنا فمدين بمركزى لنفسى . إن الأرض تحمل على ظهرها وفرة لا تنقص بل تتزايد من الأمراء ، ولكنها — على طولها وعرضها — لا تحمل إلا « بيتهوفن » واحد » .

وحدث مرة أن شهد حفلا مسائياً بقصر الأمير « زاسيوموفسكى » فلما جلس هو وتلميذه « ريس » يعزفان معاً إحدى مؤلفاته الخاصة بأربع أيد على البيانو ، قعد عند مدخل الغرفة المجاورة شاب من النبلاء يتحدث إلى سيدة حديثاً ، فى صوت مرتفع ، ولم تجد المحاولات فى

إسكانه . وفجاءة أبعد بيتهوفن يدى تلميذه عن البيانو ، وقام نافراً عابس الوجه مقطب الجبين ، يخاطب الجمع ويقول : «إننى لا أعزف لمثل هؤلاء الخنازير» . وضاع المجهود الذى بذل لإعادته إلى العزف ، بل شاء أن تكون هذه الحادثة نهاية للحفلة وختاماً للموسيقى .

كانت أمثال هذه التصرفات القاسية تحدث منه كثيراً ، ولكنه كان يندم عليها بعد أن يعود إلى هدوئه واطمئنان نفسه وكان يعتقد أن الحافز له على مثل هذه التصرفات إنما هو إطراد ضعف سمعه الذى جعله يسخط على كل الناس . ولكنه كان طيب القلب مفرطاً فى الطيبة ، سريع النسيان لما يصيبه من الناس من أذى وسوء . وبلغ من غرابة أطواره ، وشذوذ طبعه ، أن كان لايرضى البقاء فى مجلس لايرتاح لأحد الناس فيه فإذا قصد أحدا فى زيارة ، أو دعوة ، أطل أولا برأسه من الباب ، فان لمح فى الجماعة أحداً لايرتاح اليه قفل راجعاً .

ولئن كانت ثقافته العامة التى حصلها فى صغره بالمدرسة محدودة غير كافية لقد عرف كيف يستعيض عنها بتثقيفه لنفسه بمواصلة القراءة والاطلاع ، حتى ألم بنواحى الأدب المختلفة ، قديمها والحديث .

وكان « شكسبير » أحب الشعراء اليه . وما أكثر التشابه والتقارب بين أبطال روايات « شكسبير » وأبطال موسيقى « بيتهوفن » حتى أن أعلام الكتاب عندما يقابلون بين الموسيقيين والشعراء يضعون « بيتهوفن » و « شكسبير » فى صف واحد . كذلك أكسبته كثرة المطالعة فى كتب التاريخ ، دراية واسعة ، وفكرة واضحة فيه .

أما اللغات فلم يكن يعرف إلى جانب لغته الألمانية غير اللغة الفرنسية التى كان يجيد قراءتها وكتابتها ، ولا يحسن التكلم بها .

وقد يكون الحساب أضعف نواحيه . وقد اشترى فى الأيام الأولى من إقامته بفينا كتاب « مبادىء الحساب التجارى » إلا أنه لم يكن له فى أمثال تلك الكتب فائدة تذكر فظل طوال حياته ضعيفا فى هذه الناحية ، حتى لقد وجد على مصراع نافذة فى مسكنه فى « بادن » الرقم ٣٥ مكتوبا مرتين ، أحداهما تحت الأخرى ، أسفلهما حاصل الجمع ، وذلك تفاديا من صعوبة عملية ضرب هذا الرقم فى ٢

أما فى مسكنه فكان الفنان « البوهيمى » . كل شىء مشوش غير مرتب ، منقلب رأساً على عقب . فترى مبعثراً على الأرض أصول المقطوعات الموسيقية ، وأوراق النوتة منثورة هنا وهناك ، وقصاصات من الورق ، ورسائل ممزقة ، وملابس ملقاة فوق السرير . أما البيانو فقد سكب عليه المداد . ويرى المرء على المنضدة أوانى مكسرة ، وزجاجات بغير رقاب . تزين جدران غرفته صورة جده « لودفيج » فى سترته الحمراء وقبعته المدلاة إلى الجانب .

وهذه الصورة كانت متاع الأسرة الوحيد الذى حمله معه من « بون » إلى « فينا » .

كان « بيتهوفن » يستيقظ مبكراً ، فلا يعدو فى نومه الخامسة أو السادسة صباحاً . شغوفا بالاغتسال بالماء البارد حتى لتجد فى موضع الاغتسال بالغرفة عدة أوان ملأى بالماء ، فاذا اغتسل وقف فى قميصه يصب على يديه ماء

آنية بعد أخرى وهو يغمغم ، ويصوت ، لايلحظ فى ذلك أن الماء يجرى من تحته ، حتى يرى نفسه كالإوزة فى البحيرة . وكثيراً ما كان يقطع هذه العملية فتراه يحملق فجأة بنظره ، ويسير إلى المنضدة بعينين جاحظتين مخيفتين فيكتب بضع نوتات على ورقة ثم يعود فيستأنف عمليات الاغتسال والغمغمة والتصويت . وكان يفعل ذلك عشرات المرات فى الاغتسال الواحد . وكان أكره الأشياء لديه ، أن يزعجه أحد فى هذا الوقت ، فقد كان خير أوقاته للإنتاج . وكثيرا ما نسى نفسه حتى كان الماء يطفح إلى جيرانه من السكان فتكون المشادة بينه وبينهم ، أو بينه وبين صاحب الدار

أما شرابه فكان الماء المعدنى الصافى ، يشربه من الصباح حتى المساء . أما قهوة الصباح فكان يجهزها هو لنفسه ، وكان شديد العناية بصنعها حتى ليعد ستين حبة من البن للفنجان الواحد ، إذ كان لايثق بأى معيار آخر . وبعد الفطور يزاول عمله حتى الثالثة مساء حيث يتناول طعام الغداء فى أحد المطاعم المتواضعة . وكان السمك أحب الأطعمة إليه . وكان لايأكل فى الوجبة إلا صنفا واحدا . وفى ذلك يقول :

« إن الإنسان لايرتفع عن الحيوان إلا قليلا إذا كانت بهجته فى الحياة مقصورة على تنويع مايتناوله من الأطعمة » . وكان يميل كذلك لشرب النبيذ . فاذا انتهى من غذائه قام للتجوال حول المدينة مرة أو مرتين ، لايهمه فى ذلك شمس محرقة ، أو مطر غزير ، أو ريح صرصر ترميه فى وجهه بالبرَد . يتنقل بين الغابات والأحراش مستلهماً منها أفكاره الموسيقية ، ويستمد من الطبيعة ألحانه الساحرة كما تستمد النحلة حلو

شهدها من تنقلها فوق مختلف الأزاهير .

وكان بيتهوفن يحرص جد الحرص على أن يكون معـــه فى هذه التجوالات أوراق النوتة ، فإذا ألهم لحنا جلس يدونه ، ثم يستأنف تجواله . وينسى أغلب الأحيان قبعته .

حدث مرة أن خرج فى تجواله صباحاً ليقوم بنزهة صغيرة ، سار على شاطىء النهر ، وغاص فى أفـكاره فنسى نفسه ، ونسى أن يعود ، وساير النهر حتى حلت العشية و إذا به فى منطقة غريبة لا يعرفها ، ولا يعرفه أهلها ، وصل اليها منهوك القوى مغبرا ، وكان عارى الرأس فى ملابس رثة فتخيله القوم سائلا واحتجزه البوليس .

ذهب الجندى إلى رئيسه وكان فى أحد المطاعم مع أصحابه فقال :

— سيدى الرئيس ، لقد قبضنا على شخص مجهول وهو دائم الصياح إنه « بيتهوفن » ولـكنه رث الهيئة و بغير قبعة ، يرتدى ملابس ممزقة وليس لديه مايثبت شخصيته .

أعطى الرئيس أمره باحتجاز الرجل إلى اليوم التالى ، حتى يتبينوا أمره و يعرفوا شخصيته . ولـكن الجندى عاد فى الساعة الحادية عشرة مساء يخبر رئيسه ثانيا أن المقبوض عليه ثائر دائم الصياح والضجيج ، و يطلب استدعاء « الهر هرتسوج » مدير الموسيقى لتخليصه .

استدعى المـدير المذكور ، وما كاد يراه حتى احتضنه وهو يقول :

— هذا هو « بيتهوفن » أعيدوه مكرما إلى منزله فى الحال .

وفى اليوم التالى أقبل عمدة هذه الجهة فى سيارة البلدية يحمل اليه

هدايا من الثياب وغيرها، مقدما له عظيم اعتذاره على مافرط منهم نحوه بالأمس .

* * *

كانت العواصف أحب المظاهر الطبيعية إليه ، يروق له منظر تكاثف السحب المظلمة ، ثم لمعان البرق ، وصخب الرعد ، إذ كان ذلك أنسب الأشياء إلى طبعه

وكان أحب الأوقات لارتجاله ساعة الفجر ، يرتجل على آلة البيانو ، أو يمسك بآلة الكمان ، أو الفيولا .

وكان إذا خرج ليلا يقصد الى مطعم ذى غرفة منعزلة لها مدخل خاص فإن تقابل معه فيها بعض أصدقائه المقربين انشرح صدره ، واستبشر ، وقضى معهم فيها وقتا طويلا ، فاذا أزعجه غريب ، جعل جلسته قصيرة نادرة . وكان طعامه فى المساء نوعا من السمك المملح والجبن مع كوب من شراب البيرة يدخن بعدها غليونه وهو يطالع فى صحيفته السيارة (صحيفة أوجسبورج) التى كان جد مغرم بها يقرؤها من بدايتها لنهايتها .

وكان بسبب انشغال باله ، وتشتت فكره كثيرا ماينسى دفع حسابه للمطعم ، فإن كان الخادم على غير معرفة به جرى بينهما فصول غير مستحسنة. وكان لايطيق إساءة أحد له وخاصة فى مثل هذه المواقف ، فإن أحس بسوء الخدمة فى المطعم ، أو بتقصير فى الرعاية له خرج عن المألوف وكاد يكون غليظا جافيا ، حتى لقد حدث مرة فى أثناء غذائه بأحد المطاعم أن تغيظ من الخادم فبلغ به الحنق ، وثورة الغضب أن سكب الطعام كله على رأس الخادم ، فلما هدأ أجزل له العطاء فأرضاه .

وكان فى أثناء تجوله حول المدينة فى الأحراش والغابات كثيرا ماينسى نفسه فيعود الى مسكنه فى ساعة متأخرة من الليل .

خرج مرة هو وتلميذه « ريس » للترييض فى غابات ضاحية « ديبلنج » فهاما فيها وقد شغل كلاهما بالتفكير حتى جن عليهما الليل . كان « بيتهوفن » طوال الطريق يغمغم و ينغم ، تارة بصوت حاد ، وأخرى بصوت غليظ ، فلما سأله « ريس » عما يفعل أجابه « لقد وجدت الفكرة التى أنشدها لختام قطعة السوناتا » . وما كادا يصلان البيت حتى قصد « بيتهوفن » إلى البيانو وأخذ يداعب مفاتيحه أكثر من ساعة . وما كانت أعظم دهشته عندما قام بعد ذلك فوجد تلميذه جالساً فى إحدى زوايا الغرفة ينتظره . لقد نسيه بتاتا فلما رآه قال له :

— أنا لاأستطيع اليوم إعطاءك الدرس ، اذ لابد أن أواصل عملى

ولم تكن هذه الغمغمة ولا ذلك التنغيم ، ولا تلك المداعبة لمفاتيح البيانو إلا اللحن الرائع الذى ختمت به السوناتا فا مينير . تلك السوناتا الخالدة التى سميت فيما بعد « المشاعر Appassionata » .

بسمة خاطفة

فى ربيع عام ١٨٠٧ ظهر الموسيقار « كليمنتى » فى فينا مرة أخرى ولا يزال ماثلا للأذهان حادث مقابلته الأولى لبيتهوفن فى فينا وامتهانه إياه وزعمه التفوق عليه فى العزف بالبيانو حتى قهره « بيتهوفن » فى حفل ضمهما معاً وأرغم « كليمنتى » على الانسحاب خجلا .

أما الآن فقد نشأت بينهما علاقة جديدة ذات لون آخر غير ذلك اللون الذى تقدم ذكره ، ذلك بأن « كليمنتى » قد افتتح فى مدينة « لندن » محلا تجارياً للموسيقى ، ورغب أن يتعاقد مع « بيتهوفن » للحصول على حقوق بعض مؤلفاته ، فتم التعاقد .

أعطى « كليمنتى » « بيتهوفن » مائتى جنيه مقابل شراء بعض تلك المؤلفات داخل حدود البلاد الانجليزية .

وإذ كان الموسيقار الكبير فى أشد الأزمات المالية ، وأحرج أوقات الضيق فقد وجد فى هذا المبلغ فرجته ، وقام بتسديد ما كان قد سبق أن اقترضه من أخيه « يوهان » ولم تسعفه الظروف بسداده رغم إلحاح أخيه فى استرداد ماله ، لأنه اعتزم شراء صيدلية فى مدينة « لنز » .

فلما أحس « بيتهوفن » أن أعباء الحياة قد خفت عن كاهله قليلا استردت روحه شيئاً من طبيعتها المرحة الطروب واستروحت نفسه السرور يسيراً .

وفى هذا الحين أتم « السنفونى » الخامسة » دو مينير وهى تعبير صادق عن كفاح شديد بين الإنسان ومشاق الحياة ، ووصف رائع لقوة جلده فى تلقى ضربات القضاء وفواجع الدهر القاسية . وتبدأ تلك المقطوعة مباشرة بدقات القدر على باب الإنسان الضعيف إيذاناً بإعلان الكفاح الذى يجرى بينهما و ينتهى بانتصار الإنسان .

وقضى « بيتهوفن » ربيع عام ١٨٠٨ فى المدينة المقدسة ثانية — إنما كان شعوره هذه المرة مخالفاً له فى المرة الأولى حين بلغ اليأس من نفسه أن حمله على كتابة وصيته .

أما اليوم فهو الفنان الطروب ، المستمتع بما تصبو إليه طبيعته من حب الحياة فى الريف ، المغتبط بالتجول بين المناظر الطبيعية الرائعة بين لمروج والغابات ، والجبال والأنهار ، يستلهمها وحيه ، و يستمد منها أسرار فنه .

أثارت هذه المناظر كوامن نفس «بيتهوفن» فكانت « السنفونى » السادسة » المسماة « سنفونى الراعى Pastoral » ، وهى وصف لحياة الريف ، وعرض لظواهر الطبيعة فيه ، وعود إلى الإيمان . كل فكرة فى هذه «السنفونى» مستلهمة من الطبيعة ، وكل وحى فيها مستمد مما حوله.

وليست هذه « السنفونى » وصفاً مجرداً للحياة ، أو عرضا لتلك الظواهر والمناظر ، إنما هى تعبير صادق دقيق عن شعور فياض عميق :

تنقلك بدايتها إلى «شعور بالمرح فى الريف » وهو الجزء الأول . ثم يعقبه الثانى فيصف لك منظر النهر و يسمعك خرير الماء ، وتغريد الطير

ولقد قال « بيتهوفن » لصديق له زار معه تلك الجهات بعد خمسة عشر عاماً من ذلك التاريخ مشيراً إلى هذا الجزء من « السنفونى » أثناء سيرهما وسط المناظر الرائعة :

« لقد كانت الطيور الغردة والبلابل الشادية التى تملأ المكان تلحن معى » .

ثم يعقب ذلك الجزء الثالث منها وهو عرض فخم لمجلس أنس قروى ، ووصف رائع لمسرات الريف ، لم ينس فيه حتى عازف القربة . ألحان مرحة ملأى بالدعابة والفكاهة قد تكون من أروع ما أنتجته عبقرية « بيتهوفن »

و بينا يكون الجمع فى نشوته وفرحه ومسراته إذ يفاجأ بعاصفة جوية شديدة تعصف فيها الزوابع ، ويلمع البرق ، و يقصف الرعد ، وتتساقط الأمطار . كل ذلك فى نغم حلو وتعبير صادق .

ثم يعقب ذلك لحن الشكر ، يتقدم به الجمع إلى خالقه شكراً على السلامة من شرور هذه العاصفة ، وحمداً له على الخلاص من هذا الخطر .

وعجيب أن لا تقابل هذه « السنفونى » التى تعد بحق أروع وأخلد ما أنتجه « بيتهوفن » بما تستحقه من التقدير . كان أول ظهورها فى ٢٢ ديسمبر من ذلك العام ، فتلقاها الجمهور بفتور شديد ، ولم تصادف منه قبولا ، ذلك بأن ميل الجمهور وقتئذ كان منصرفاً إلى موسيقى الرقص ، متعلقاً بألحانها الخفيفة . ولكن « بيتهوفن » لم يعبأ بهذا الفتور ، ولم يهتم لحكم الجمهور الذى كان يسميه فى مداعباته « حيوان الأضحية » .

* * *

ولئن كان نتاج « بيتهوفن » لم يصادف التقدير الذى يستأهله لقد كانت قيمته تتزايد فى البلاد الألمانية شيئاً فشيئاً ، حتى تنافس الناشرون فى سبيل الحصول عليه .

كذلك أصبحت طائفة الأشراف والنبلاء الذين يقدرون الموسيقى ، ويعنون بها فى قصورهم تهتم جد الاهتمام بعزفها مقطوعاته فى حفلاتهم متنافسين فى ذلك ، كما يتنافسون فى دعوته إلى تلك الحفلات ، فخورين بحضوره فيها .

وكثر فى ذلك الوقت اتصاله بالمجالس ، واختلاطه بالجماعات . وظهرت بعض عنايته بهندامه حتى لقد بلغ حد التأنق أحياناً . وكان فى هذه الفترة كثيراً ما يساير رغبات المجتمع ، يحقق لهم ما يطلبونه منه ، حتى أنه لم يتأخر عن أن يعزف لهم أحياناً موسيقى راقصة .

كذلك كثر ظهوره فى المطاعم والمحال العامة . وكثر التفاف أصدقائه حوله ، فكانوا يسمرون معه طويلا ، يتحدثون فى الموسيقى والسياسة . كان « بيتهوفن » يشترك معهم فى هذا السمر بجسمه فقط . أما تفكيره فكان شارداً فى استلهام الإيحاء وصوغ الألحان . فإذا عاد بفكره إلى المجلس فاجأهم بقوله « من بريمن ؟ » فكان هذا إشارة إلى رجوعه بذهنه إليهم .

ولهذا الاصطلاح قصة ، تلك أن « بيتهوفن » فى أثناء قراءته إحدى الصحف الموسيقية ، وقف على نادرة الموسيقار « بندا » وكان معروفاً بكثرة شرود فكره وتشتت باله ، تلك هى : أن ذلك الموسيقار سافر إلى

مدينة «دساو» ، فدعى فيها إلى وليمة أقامها له « روست » مدير الموسيقى فى تلك المدينة . وكان اغتباط « روست » عظيما لتشريف هذا الضيف داره . وفى أثناء الطعام أخذ صاحب الدعوة يتحدث عن الموسيقى ، وعن أثرها العظيم فى النفس ، وتعبيرها الصادق عن مختلف العواطف والمشاعر ، وما إلى ذلك من أدب الموسيقى وفلسفتها . كان « بندا » صامتاً شارداً يأكل ولا يتكلم ، وإذ سره بوجه خاص شراب النبيذ الذى قدم له ، وأراد أن يحادث مضيفه ولو بكلمة سأله — مجاملة — عن مصدر هذا النبيذ فأجابه « روست » : من بريمن . وبعد الغذاء خرجا معاً فى نزهة خلوية . وإذ كان « روست » كثير الكلام ، فقد أخذ يفيض فى شرح جمال الطبيعة ، ثم انتقل إلى الحديث عن حالته العائلية ، فأخذ يعرض الأطوار التى مر بها أطفاله ، والأمراض التى أصيب بها زوجه وأولاده . لم يسمع « بندا » شيئا من كل ما تحدث اليه به « روست » . فلما تنبه خجل من نفسه ، وساءه ألا يشاطر مضيفه الحديث . وإذ كان لا يعرف شيئا عن مادة الحديث وكان يذكر أن آخر حديثهما كان عن النبيذ فقد قاطع حديث «روست» العائلى بقوله : من بريمن ؟ .

أعجب « بيتهوفن » بهذه القصة حتى اتخذ هذه الجملة إشارة ينطق بها فى الجلوس مع الأصدقاء دلالة على عودته بتفكيره اليهم ، واستعداداً لمشاركتهم الحديث .

وكان « بيتهوفن » كثير التسامح ، يغفر لأصدقائه ما يبدر منهم فى حقه . فإذا كانت الخطيئة متعلقة بالفن فلا تسامح ولا غفران .

حدث مرة أن عزف « بيتهوفن » لحناً جديداً ألفه فأعجب به تلميذه « ريس » الذى كان حاضرا ، و بلغ من تأثره أن طلب إعادته فأعاده أستاذه فلما عاد « ريس » إلى بيته مر فى طريقه بقصر الأمير « ليشنوفسكى » فلم يطق صبرا على إخفاء هذا اللحن الجديد الرائع فدخل القصر وأبلغ أمره للأمير . وألح الأمير فى سماعه ، وطلب اليه أن يعزفه على قدر ما تطيقه ذاكرته فعزفه « ريس » حتى ألم به الأمير .

وفى اليوم التالى قصد الأمير إلى منزل « بيتهوفن » وقال له فى دعابة « لقد لحنت قطعة جديدة فهل تحب سماعها ؟ » .

و إذ لم يكن « بيتهوفن » محباً للتطلع فإنه لم يظهر رغبة فى هذا السماع ولكن الأمير ألح عليه فأخذ يعزف القطعة التى سمعها من « ريس » والتى كانت أحسن نتاج « لبيتهوفن » .

إن الإنسان ليستطيع أن يدرك دهشة « بيتهوفن » عند سماعه هذا اللحن . لم يغفر للأمير هذه الدعابة ، ولا لتلميذه هذا التعدى فكان جزاء تلميذه « ريس » حرمانه حرمانا قاطعا من سماع عزف أستاذه . وقد بالغ « بيتهوفن » فى الأمر حتى كان إذا حضر حفلا لا يعزف فيه إلا اذا خرج « ريس » . وقد تمسك بهذا رغم ما بذله الأمير « ليشنوفسكى » وزملاؤه من السعى فى استرضائه ، والحصول على عفوه ، ورغم أن « ريس » هو تلميذه المدلل الذى كان دائما موضع إكرامه ومحبته .

* * *

وفى شتاء ذلك العام طلب إلى « بيتهوفن » أن يلتحق ببلاط الملك

« جيروم » الشقيق الأصغر لنابليون بونابرت ويكون مديراً لفرقته الموسيقية بمدينة « كاسل » ، وقد استدعى أيضاً الموسيقار «رايشمارت » مدير فرقة البلاط ببرلين لتولى إدارة الفرقة الغنائية المسرحية فى بلاط « كاسل » أيضا ، وقد عرض على « بيتهوفن » فى نظير ذلك مرتب قدره ستمائة دوكات (حوالى ٢٧٠ جنيها) فى العام . وفى هذا الاختيار مايفيد أن أمر صمم « بيتهوفن » كان مجهولا للناس إلا عند أصدقائه والمقربين اليه .

عندئذ اجتمعت طائفة من أشراف «فينا» المعجبين بفن «بيتهوفن» الفخورين برائع نتاجه وعقدوا العزم على استبقائه « بفينا » وخصصوا له مرتباً ثابتا قدره ٤٠٠٠ جولدن (حوالى ٣٤٠ جنيها) فى العام تعهد بدفعه ثلاثة من الأمراء . وأن يستولى « بيتهوفن » على هذا المرتب حتى يجد له وظيفة تتفق وفنه ، فإذا لم تتح له مثل هذه الوظيفة أو أصيب بمرض أو عائق ، كان له حق الاستمرار فى صرف هذا المرتب مدى الحياة . على أن يلتزم « بيتهوفن » فى نظير ذلك البقاء فى « فينا » .

كان فى هذا نوع من الترضية الأدبية لنفس « بيتهوفن » التى لم تصادف حتى الآن تقديرا ، كما كان فيه بعض استقرار لحياته ، ذلك الاستقرار الذى طالما تمناه وتطلع إليه .

وتعرّف « بيتهوفن » بأسرة «مالفاتى» وكان عميدها مثريا من ذوى الأملاك الواسعـــة . اطمأن « بيتهوفن » الى هذه الأسرة فكان يقضى الكثير من سهراته فيها . وكان أفرادها جميعاً شغفين بالموسيقى يفضلونها على كل ماسواها . وكان سمرها غاية فى الأنس ، والبهجة ، والفكاهة ،

جذب اليه نفس بيتهوفن ورأى فيه انشراح صدره وطمأنينته . على أن جاذبية أخرى كانت فى هذه الأسرة تتضاءل بجانبها هذه الجاذبية فى نظر الموسيقار العبقرى . تلك أنه كان لهذه الأسرة فتاتان جميلتان فى ميعة الصبا . اكتمل نضجهما . وزفر حسنهما . إحداهما تكبر الأخرى بعام واحد ، وكلتاهما تقطعان منتصف العقد الثانى .

واذ كان محور الحديث فى ليالى السمر يدور عادة حول الموسيقى فقد كان « بيتهوفن » موضع الإجلال والتقدير من هذه الأسرة وبخاصة من فتاتيها اللتين احتل « بيتهوفن » من قلبيهما مكانة سامية ، ومركزا عظيما . وكانت إحداهما وهى « تريزا » ذات موهبة موسيقية نادرة ، واستعداد فنى عظيم . فلقنها بيتهوفن دروسا فى البيانو ، بل ولحن من أجلها بضعة أغان . وقد زاد شغفه بها حتى اعتزم الزواج منها كما سنذكره فيما بعد .

ويلات الحرب

اضطرت النمسا فى معاهدة « برسبورج » إلى التخلى عن جزء كبير من أراضيها لنابليون الذى لم يقنع منها بذلك بل دأب على إرهاقها بطلبات متكررة متجددة .

رغبت النمسا أن تحد من مطامع ذلك القائد الذى لا حد لآماله ومطامعه ورأت أن امتشاق الحسام أنجع الوسائل للذود عن حياتها ، ودرء الأخطار التى تهدد كيانهـا ، وكانت الفرصة سانحة لأن جزءا كبيرا من الجيش الفرنسى تفرغ للحرب ضـد أسبانيا فى عام ١٨٠٩ فأمرت النمسا جيوشها بالتعبئة العامة استعدادا لدخول الحرب .

علم « نابليون » بهذه الحركة فطالب « النمسا » بتسريح جيشها والكف عن الاستعدادات الحربية ، ولما لحظ تسويف الوزارة النمساوية أسرع فحشد جيشا انضم اليه جيوش « بولندا » ومقاطعات « الرين » وزحف بها على النمسا تجاه نهر « الدونا » .

اشتعلت نار الوطنية فى البلاد النمساوية عامة سيما فى عاصمتها « فينا » فقد بلغ الحماس فيها أشده ، وأصبحت المسارح ، والدور العامة منتديات للاجتماعات السياسية ، تلقى فيها الخطب ، والأغانى الحماسية . ولعل أظهر هذه الحفلات كانت تلك الحفلة التى أقيمت فى ٢٨ مارس باحدى تلك الدور حيث ألقيت فيها طائفة كبيرة من أغانى الحرب قامت بأدائها كروانة « فينا » وقتئذ « أنا ميلدر » المغنية المعروفة التى كانت بطلة أوبرا « فيديليو »

وكانت أقوى أغنية أثرت فى الشعب أنشودة « السلاح » أدتها تلك المغنية وقد تزيت بزى امرأة تمثل النمسا وأخذت تهز بصوتها الساحر قلوب الجماهير وتستثير هممهم حتى اختتمت تلك الأنشودة بترديدها « إننا نقسم » فكان الجمهور يرددها معها فى حماس بالغ ، وشعور ملتهب ثم أعقبتها بغناء الأنشودة الجديدة « النمسا فوق الجميع »

لقد التحق بالجيش كل من يقوى على حمل السلاح . وكانت هذه فرصة أظهر فيها « بيتهوفن » مايجيش فى صدره من الإيمان الوطنى بما أمد به هذه الحركة من الألحان القوية والقطع الحماسية الرائعة .

وعجيب أن يظهر فى هذا الوقت العصيب طيف أوبرا « فيديليو » مرة أخرى ، فقد ألح أصدقاء « بيتهوفن » ونفر من المعجبين به فى إحيائها فأعلن عن ظهورها فى يوم ١١ مايو من هذا العام ، ولكن سرعان مااختفى هذا الإعلان من الطرقات وغاب عن أعين الجمهور كأنه لم يكن .

ذلك بأنه رغم الحماس الذى أبداه الشعب النمساوى والشعور الوطنى الذى فاض به ، كانت سفته فى الحرب غير راجحة . ولم يأت يوم ١٠ مايو — وهو اليوم السابق للموعد الذى كان قد حدد لظهور « فيديليو » — إلا كان الجيش الفرنسى المنتصر قد بلغ فى زحفه أبواب فينا .

دوّت المدافع الضخمة بطلقاتها المفزعة فأزعجت أهل «فينا» وكان ضحيتها الشيخ المريض الموسيقار «جوزيف هايدن» فإنه لم يقو على سماعها فأصيب بما عجل منيته ، وقضى بعد ذلك بأيام .

كذلك كان لهذا الدوى الهائل أثر سىء فى «بيتهوفن» فقد سبب

له فى أذنيه آلاما شديدة جعلته يهرع إلى مسكن شقيقه « كارل » وكان أبعد من مسكنه عن مصدر الطلقات ، فينزل إلى الدور الأسفل منه ثم يحتمى بوضع وسادات على أذنيه لتحجب عنهما سماع تلك الأصوات المزعجة

وفى أوائل شهر يوليو وضعت الحرب أوزارها . ورحل « بيتهوفن » إلى أملاك الأمير « ليشنوفسكى » فى « جريتز » بمقاطعة « شيليزيا » النمساوية وهو يؤمل أن يجد فيها من هدوء الريف ، وطيب الحياة مايعوض عليه بعض ماقاساه . ولكن شاء سوء حظه إلا أن يتابعه فقد انتشر الفرنسيون فى تلك الجهات ، بل كان من أعاجيب القدر أن يكلف بالعزف فى قصر الأمير « ليشنوفسكى » لطائفة من كبار أولئك المغيرين . كانت تلك رغبة الأمير . وإذ كان « بيتهوفن » شديد الكراهية لأولئك الناس فقد أبى تحقيق رغبة أميره وحدثت بينهما بسبب ذلك مشادة عنيفة انتهت بمغادرة « بيتهوفن » القصر غاضباً وعودته إلى « فينا » .

وكان « بيتهوفن » رجلا متدينا ، قوى الإيمان بالله لايعترف بالعظمة والكبرياء إلا له . وهو وإن كانت هذه صفته ، وقد بلغ الأربعين من العمر فإنه لم يضع حتى هذه اللحظة قداساً كنسياً إطلاقا ، برغم ما كان ينطوى عليه هذا النوع من التأليف من الأهمية العظيمة من ناحيتى الفن والدين

طلب الأمير « نيقولاوس استرهاسى » — الذى ظل الموسيقار « جوزيف هايدن » فى خدمة جده بمدينة « إيزنشتات » ثمانية وعشرين عاما — إلى بيتهوفن وضع قداس كنسى .

وإذ كان هذا الحفيد مشغوفا بالموسيقى فقد أعاد عهد جده فأسس

بقصره فى مدينة « ايزنشتات » فرقة موسيقية أقام على رأسها الموسيقار « هوميل » .

فلما انتهى « بيتهوفن » من تلحين القداس الذى طلب إليه تلحينه سافر إلى مدينة « أيزنشتات » ليشهد بنفسه أداءه . كان القداس مؤلفاً لأربعة أصوات بشرية تصاحبها فرقة موسيقية وآلة الأرغن ، وترأس هذا الأداء الموسيقار « هوميل » رئيس فرقة الأمير . وإذ كان الأمير « نيقولاوس استرهاسى » شديد الإعجاب بالموسيقى الدينية التى ابتدعها «هايدن» ، لايسمو اليها أى نتاج آخر من هذا النوع ، فإن قداس « بيتهوفن » لم ينل منه رضاء حتى خاطب « بيتهوفن » فى غير عناية قائلا :

« ياعزيزى بيتهوفن ! ما هذا الذى أنتجته ؟ » .

شعر « بيتهوفن » بإهانة عظمى فى هذه العبارة و بطعنة نجلاء توجه إلى كرامته من هذا الأمير ، الذى كان الموسيقار « هوميل » إلى جانبه يضحك عند سماعها . لم يسع « بيتهوفن » الغاضب لكرامته إلا أن يرحل من مدينة « ايزنشتات » عائدا إلى « فينا » .

* * *

كان « بيتهوفن » الموسيقار الألمانى الفذ ، معاصرا « لجيتا » الشاعر الألمانى الأوحد الذى يكبر زميله بواحد وعشرين عاماً .

بدأت معرفة « بيتهوفن » بالشاعر « جيتا » منذ الطفولة ، حيث استظهر طرفا من مقطوعاته الشعرية ، حتى لقد لحن بعض قصائده تلحينا بقى على الزمن صفحة خالدة من روائع الفن ، و بدائع التنغيم .

وجاء دور تعارف هاتين الشخصيتين ، الفذتين بعضهما إلى بعض ، معرفة شخصية ، وكان ذلك عن طريق سيدة أغرمت بالموسيقى والشعر ، فأقبلت عليهما إقبالا حملهما على التفانى فى هذين الفنين ، والتقرب إلى أهلهما ، فكانت واسطة التعارف بين العلمين « بيتهوفن » و « جيتا » تلك هى السيدة « بتّيناقون أرنيم » .

كانت هذه السيدة صديقة لجيتا ، تربطها به أوثق صلات الصداقة . فلما رحلت فى عام ١٨١٠ إلى « فينا » للإقامة بها ردحا من الزمن ، كان أول ماقصدت اليه لقاء « بيتهوفن » والتعرف إليه .

و إذ اتصلت به ، فقد بدأت تنوه عنه فى رسائلها إلى صديقها « جيتا » وكانت أولى تلك الرسائل مؤرخة فى اليوم الثامن والعشرين من مايو من ذلك العام ، وهى رسالة مطولة جاء فيها :

« هو « بيتهوفن » الذى أحدثك عنه ، والذى جعلنى أنسى العالم ، وأنساك أيضاً . أعتقد أن هذه العبقرية الفذة لايفهمها أحد ، ذلك بأن نتاجها فوق مستوى جميع الناس . إنه يدرك دقائق الحياة البشرية ، وهى فى جيبه كساعته ، إنى أجله وأكنّ له كثيرا من الشعور بالاحترام ، وهو يقبل على محادثتى بوداعة وفى صراحة تامة ، إننى ولا ريب لاشىء إلى جانبه . لقد قال الناس لى ، إنه يحب العزلة ، ويكره الاتصال بالناس ، بسبب إصابته فى حاسة سمعه ، غير أننى لم ألحظ فيه تلك المعاملة السيئة ! فاستقبلنى ببشاشة وسألنى عما إذا كنت أرغب فى سماع أغنية لحنها توا ، فلما أظهرت علائم الرضى قصد إلى آلة البيانو ، وأخذ يعزف لحنا وضعه

لقصيدتك : هل تعرف تلك الأرض ؟ » .

وكتبت « بتينا » هذه إلى صديقها « جيتا » فى رسالة أخرى تقول :

« أى جيتا ! لا يوجد ملك ، ولا قيصر ، يعتد بنفسه ، ويثق فى قوته مثل بيتهوفن » .

كانت « بتينا » تقصد إلى « بيتهوفن » كل يوم تنصت إلى سحر أنغامه ، وتستمع إلى حلو حديثه . وقد روت أنها فى إحدى نزهاتها معه حدثها عن « جيتا » بقوله :

« ليست عظمة شعر « جيتا » فى معناه فحسب ، بل فى قوة إيقاعه التى لها علىّ سلطان شديد ، تسوقنى سوقا الى تلحينها ، فإن شعره يحمل فى طياته أسرار الانسجام الموسيقى الذى أبحث عنه » .

ذلك من ناحية « بيتهوفن » أما من ناحية « جيتا » فكان يحمل لصاحبه نفس هذا الاحترام ، ومثل هذا التقدير ، حتى لقد كتب إلى صديقته « بتينا » فى إحدى رسائله يقول :

« أرجو أن تبلغى « بيتهوفن » خالص تحياتى القلبية . وسأقوم بكل تضحية فى سبيل معرفته ، معرفة شخصية ، حيث نستطيع أن نتبادل معاً الأفكار والشعور . لعلك تستخدمين تأثيرك فيه ، فترغبينه فى السفر إلى مدينة « كارلسباد » التى أزورها كل عام تقريباً فأحظى بسماع موسيقاه وأرتشف من بحار علومه فيها » .

ومع ذلك لم يلتق هذان العلمان إلا بعد ذلك بعامين ، كما سنذكره مفصلا فيما بعد

كان لما خصصه الأمراء لبيتهوفن من دخل سنوى ثابت أثر عظيم فى تفكيره ، فإنه وقد خف عن كاهله عبء الحياة المادية ، أخذ يتطلع إلى حياة هادئة مستقرة . وفكر جدياً فى أمر الزواج .

وفى يوم ٢ من مايو سنة ١٨١٠ أرسل « بيتهوفن » — وكان قد بلغ الأربعين من عمره — إلى مدينة « بون » فى طلب وثيقة رسمية خاصة بتاريخ ميلاده كان فى حاجة اليها لمناسبة هذا الزواج . ولئن اتفق الرأى على أن استحضار هذه الوثيقة كان لتلك المناسبة ، لقد اختلف الرواة فى تعيين من وقع عليها اختياره لتكون زوجه ، إنما ترجح الروايات أن تلك الخطيبة لم تكن غير تلميذته « تريزا مالفاتى » التى لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرهـــا ، وأنه كما خاب فى خطبته الأولى « جولييت جويكياردى » فكذلك قد أخفق فى هذه المرة ورزىء أيضا فى حبه الجديد ، فقد رفض الوالدان أن يزوجا ابنتهما موسيقاراً معدما ، نصف أصم ، بل إن « تريزا » نفسها ، لم تقبل أن تلقى بنفسها فى أحضان حياة شاقة وأن تضحى حياتها فى سبيل حبها عبقرية تجلها وتحترمها .

وسواء أكانت خطيبته « تريزا » أم غيرها فقد فشل فى خطوبته ، ومنى من أجلها بصدمة قلبية عنيفة ظهر أثرها فى إحدى رسائله لصديق له حيث يقول :

« ليس لك أيها المسكين « بيتهوفن » أن تنتظر سعادة تأتيك من العالم الخارجى ، إنما عليك أن تخلق سعادتك من باطنك ، وفى أعماق نفسك ، فإنك لن تجد أصدقاء إلا فى العالم الروحى » .

لم يقعد الفشل الذى منى به « بيتهوفن » عند حد الخيبة فقط بل أقلق

حياته وزاد فى اضطرابه حتى ليمكن أن نفرد له بابا فى تأريخه عما كان يجرى بينه وبين خدمه من المشادة والشغب والتبديل والتغيير .

وسرعان ما اعترف « بيتهوفن » نفسه بأن إخفاقه فى الخطبة كان عدلا بل لقد كان ذلك الرفض سعادة له فقال :

« قد يكون من سعادة المرء أحياناً ألا تحقق آماله » (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) .

ذلك بأن الزمن الذى يأبى مسالمة العباقرة الأفذاذ قد قلب له ظهر المجن فساءت حالته المالية ، ووقع مرة أخرى فى متربة شديدة وضائقة مستحكمة وقيود من الديون لم يستطع الفكاك منها ، وفاقة شديدة حمد الله على أنه وحده الذى يغص بمرارتها ولم تشاطره الغصة زوجة يتضاعف بها همه فى تحمل أعباء الحياة .

أصيبت « فينا » بنتائج الحرب إصابة بالغة ألحقت بها خسائر فادحة فهبطت الأوراق المالية فى النمسا إلى خمس قيمتها الأساسية . وبذلك هبطت قيمة المبلغ المخصص مرتبا « لبيتهوفن » من ٤٠٠٠ جولدن إلى ٨٠٠ جولدن فقط (حوالى ٦٨ جنيها فى العام) . بل لقد أصيب « بيتهوفن » بما هو أدهى من ذلك ، إذ توفى أحد الأمراء الثلاثة المتعهدين بدفع هذا المرتب على أثر سقوطه عن ظهر جواده فتوقف ورثته عن دفع ما يخصهم فى هذا المرتب . وأفلس أمير ثان من هؤلاء الثلاثة فلم يستطع دفع ما يخصه . ذلك فضلا عما كانت تتقزز له نفس « بيتهوفن » من سماعه ما كان يدور على ألسن كل حاشية أولئك الأمراء من أنه يستولى على مال بدون مقابل

إذن لم يبق من هؤلاء الأمراء الثلاثة غير واحد هو النبيل «رودنف» وكان شديد العطف على «بيتهوفن» كبير الإعجاب به ، كما كان كذلك أحد تلاميذه.

شق على هذا الأمير أن يرى حالة «بيتهوفن» تصل إلى ما وصلت إليه من البؤس وأن يحرم ما خصص له من المرتب بعد أن فوّتوا عليه وظيفة عالية فى بلاط كبير . لهذا فقد ضاعف له ما يخصه من هذا المرتب حتى بلغت قيمة ما يدفعه إليه ٩٠٠ جولدن (حوالى ٧٦ جنيها) .

كان لزاما على «بيتهوفن» أن يقنع بهذا القدر من المال وكان فى ذلك ما صدع فؤاده وآلم نفسه . وضاعف إيلامه أن ظهر له فى ذلك الوقت المقطوعة « كونسرت البيانو مى الكبير» وكان ينتظر لها ولو نجاحا أدبيا يسرّى عن نفسه ، ولكنها سقطت بل وظهر ضده طائفة من المعارضين بفينا ، اتفقوا فيما بينهم على العمل لإسقاط كل نتاج فنى يظهر له .

وكان مما يحز فى نفس « بيتهوفن » ألما وغضاضة ما كان يضطر إليه فى صرف راتبه السنوى المخفض من تقديم شهادة رسمية تثبت أنه على قيد الحياة ، وكان يكره على هذا العمل البغيض كل عام . فكان عملا ثقيلا على نفسه مريراً . حتى لقد شكا هذه الحال لصديق له ، فكتب يصف له هذه الشهادة بعبارة تدل على مقدار ما يحس به من الألم إذ وصفها بأنها « شهادة تثبت أن السمكة على قيد الحياة » .

وقد يكون عام ١٨١١ أقل سنى «بيتهوفن» نتاجا ، فلولا ما قام فيه ، بناء على طلب مسرح مدينة «پست Pest» ، بوضع موسيقى أطلال أثينا وأوفرتير الملك ستيفان ، لم يكن يعرف لهذا الموسيقار الخالد نتاج يذكر فى ذلك العام